المقتطف

الجزء الرابع من السنة الثالثة والعشرين

١ ابريل (نيسان) سنة ١٨٩٩ — الموافق ٢٠ ذي القعدة سنة ١٣١٦

جون كوك

فاحسن وجه في الورى وجه محسن وايمن كف فيهم كف منعم
واشرفهم من كان اشرف همة واكبر إقداماً على كل معظم

الناس من اب واحد وجلّة واحدة. ولكنهم يتفاوتون في العقول والهمم تفاوتاً لا مثيل له في نوع آخر من انواع الحيوان. ترى فيهم الكسل الوكل الذي يعيش كالحلم [1] على غيره. وترى المقدام المفضال الذي يستخرج خيرات الارض وينفع بها نوع الانسان. ترى الجاهل الاحمق الذي يعيث بوجوده ويعيش كالنبات لا ادراك ولا شعور والعالم المحقق الذي يبحث عن نواميس الكون ويستجلي اسرار الطبيعة لكي يحيي مروءة الحياة ويزيل منها المشاق والمكاره. ترى الظالم الغاشم الذي دأبه الفتك بابناء نوعه واختلاس جنى اتعابهم بكل طرق الحرام والكريم المحسن الذي يؤثر على نفسه ويستسهل كل مشقة في خدمة ابناء جنسه

ونحن في اثباتنا طرفاً من ترجمة المرحوم جون كوك انما نقصد ان نطلع ابناء الشرق على سيرة رجل مقدام فاق سائر من نعرفه بعلو الهمة ومضاء العزيمة وتوخي النفع فادار اعمالاً كبيرة يتوقعها كبار الرجال ونظمها تنظيماً يكاد يكون نادر المثال. ولم يبطره المال الكثير الذي كسبه ولا صرفه عن غوث الفقراء ووفد المنكوبين بل زادت دعته بزيادة ثروته وكثرت مبرّاته بكثرة اموالهِ

ولد ببلاد الانكليز سنة ١٨٣٤ وكان ابوه يعمل حينئذٍ في خراطة الخشب حرفة قليلة الربح لا تمكّن صاحبها من تعليم اولاده في المدارس العالية الكثيرة النفقات ولاسيما في البلاد الانكليزية ثم انتقل به الى بلد آخر وانشأ مطبعة صغيرة وجعل يطبع فيها جريدة قد شرب المسكرات وكان يرسله بعض النهار الى المدرسة ويستخدمه بقية النهار في المطبعة لكي يدفع

(١) الكسل الضعيف والوكل الساحر الذي يكل امرهُ الى غيره والحلم الدود الذي يأكل الجلد

من اجرته نفقات تعليمه فكان ينهض عند الفجر ويأتي المطبعة ويقيم فيها الى حين ابتداء الدروس في المدرسة فيمضي اليها ويعود الى المطبعة في فسحة الظهر والمساء وكثيراً ما كان يعمل فيها الليل كله فلم يتعلم كثيراً وترك المدرسة قبل ان اتمّ الرابعة عشرة من عمره

ثم بعث به ابوهُ الى مطبعة اخرى فكان يعمل فيها من الساعة السادسة صباحاً الى الثامنة مساء وبقي ستة اشهر يعمل على هذا النسق من غير ان تحسب لهُ اجرة فعاد الى مطبعة ابيه. وكان قوي البنية شديد العضل فاق الطبّاعين كلهم في الطبع على آلات الطباعة وكان يقيم على آلة الطباعة من الساعة السابعة مساء الى الصباح فيطبع الفي ورقة من الاعلانات الكبيرة ويمضي بها عند الفجر الى احدى المدن الكبيرة في داخلية البلاد ويتولى الصاقها على الجدران وكثيراً ما كان يفعل ذلك يوماً بعد يوم وليلة بعد أُخرى

فلما ان ابداهُ كان ينشر جريدة ضد شرب المسكرات وكان من القائمين بدعوة الناس الى مقاومة السكر واتفق الذين يذهبون مذهبهُ على الاجتماع في روض كبير بعيد عن بلدهم حيث يتلون الخطب ويدعون الناس الى هجر المسكرات وكانت سكك الحديد في بداءة نشأتها فخطر لهُ انهُ اذا عينت شركة سكة الحديد قطاراً خاصاً للذهاب بالناس الى ذلك الروض باجرة خمسة ذهب كثيرون منهم فكان للشركة ربح كافٍ لكثرة الذين يذهبون. وكاشف الذين اجتمعوا حينئذٍ بما في نفسهِ فوافقوهُ عليهِ وفوّضوا امرهُ اليهِ فقابل سكرتير الشركة واطلعهُ على رأيهِ فقال لهُ هذا اني لا اعلم من انت ولا اعلم جماعتك ولكني اعطيك القطار كما طلبت ودفع اليهِ جانباً من النفقات. فمضى من ساعتهِ واعدَّ ما يلزم لاطعام الجماعة بعد وصولها الى الروض وذهب في ذلك القطار ٥٧٠ نفساً من مدينة لستر الى لوبرو حيث الروض المشار اليهِ دفع كلٌّ منهم شلناً اجرة الذهاب والاياب. وهذه اول سفرةٍ سفَّر بها الناس واول حلقة من سلسلة متصلة الحلق ابتدأت سنة ١٨٤١ وامتدَّت الى الآن وستمتد الى ما شاء الله من الزمان ولم تقتصر على بلاد الانكليز بل شملت كل قطر من اقطار الكرة الارضية براً وبحراً

وسار المترجَم مع ابيهِ في سفراتهِ الاولى ثم جعل يسير وحدهُ مع السفّار ويعتني بهم يرشدهم في اسفارهم وبقي على ذلك العمر كلهُ لكنهُ ابتدأ بجماعة من عامة الناس وانتهى بقيصر الالمان في العام الماضي كما سيجيء

ولما اعتمد عليهِ ابوهُ في تدبير المسافرين جعلت الحاجة تفتق حيلتهُ فصار يهتمُّ بامتعتهم ومواعيد السفر براً وبحراً وباعداد الفنادق التي ينزلونها والمشاهد التي يرونها. ولما اقيم المعرض العام في بلاد الانكليز سنة ١٨٥١ تولّى تسفير ١٦٥ الف نفس اليهِ مع انهُ كان في السابعة عشرة من

العمر . وكثيرًا ما كان يسافر معهم خمسة ايام بلياليها من غير انقطاع لكي لا يفوته شيء من الاعتناء بهم . وزادت رغبة الناس حينئذٍ في مشاهدة المعرض لتسهيل السفر عليهم حتى كان العمّال منهم يرهنون ساعاتهم ليدفعوا اجرة السفر اليه . ولما رأى رؤساء سكك الحديد همته واقدامه دعاه واحد منهم ليدير القطرات التي تنقل السيّاح وطالبي النزهة فادارها ثلاث سنوات بهمة لا تعرف الملل وكان يبحث عن الاماكن التي تستحق ان يقضي اليها الناس ويشاهدوا ما فيها من المتنزهات او الآثار او المشاهد الطبيعية وعمّا يرغبهم في الذهاب اليها وعن اصلح الاوقات للذهاب والاياب ثم يعيّن الاجور اللازمة ويعلن ذلك في الجرائد وفي الاعلانات التي تلصق على الجدران ويطلب من الحكومة ان تقلل الجعل على القطرات التي تمضي بالمتنزهين لقلة الاجرة التي تطلب منهم ويكتب الى رؤساء المحطات يعلمهم بسفر هذه القطرات ويعدّ الحراس والروّاد والادلة . وكثيرًا ما كان يحيي ليلهُ بالكتابة لهذه الغاية حتى لقد كان متوسط شغلهِ في شهور الصيف ثماني عشرة ساعة كل يوم وكان يقضي شهور الشتاء في زيارة المحطات ومراجعة الحسابات واصلاح اسباب الخلل . ومع ذلك كلهِ لم يكن راتبهُ السنوي سوى خمسة وسبعين جنيهًا لا غير . هذا الذي جمع ثروة تقدّر بمئات الالوف خدم شركة سكة الحديدة المتوسطة ثلاث سنوات متوالية بعزم امضى من السيف وهمة تدكّ الرواسي ولم تكن اجرتهُ في السنة سوى ٧٥ جنيهًا . ولم تكن هذه الاجرة زربة في ذلك الحين ولا كانت اجور المستخدمين اوفر منها . وقد سمحت لهُ الشركة ان يساعد اباهُ كما لاحت لهُ فرصة ولم تضرّ مساعدتهُ لهُ باعمالها فبقي في خدمتها ثلاث سنوات ثم تركها واقتصر على الاشتغال وحدهُ وعلى مساعدة ابيهِ حينما يضطر الى مساعدتهِ . ثم جعلهُ ابوهُ مديرًا لاعمالهِ كلها وساح معهُ سبع فرنسا وسويسرا وايطاليا وذلك سنة ١٨٦٤ ومضى الى اميركا بعد سنتين واتفق مع شركات سكك الحديد فيها على تسفير السياح . وكثرت اسفارهُ في ذلك الحين فكان يقطع اكثر من خمسين الف ميل كل سنة . ثم طاف المسكونة كلها مرارًا وفتح فروعًا لعملهِ في كل المدن الشهيرة . ابتدأ في عملهِ وحيدًا وانتهى منهُ ومعهُ مئات والوف من الخدم والاعوان وبعضهم من كبار رجال الادارة . ابتدأ وثروتهُ كلها تقدّر بالدراهم القليلة وانتهى وقد كسب مئات الالوف من الدنانير وسرّ نجاحهِ همتهُ واستقامتهُ واعتمادهُ على الاكفاء من الاعوان وعلى النشر في الجرائد والاعلانات فلا جريدة شهيرة الاّ وفيها شيء من اعلاناتهِ . وقد بلغ ما وزّعهُ من المنشورات في سنة ١٨٩٠ نحو احد عشر مليونًا وما الصقهُ بالجدران من الاعلانات اكثر من سبع مئة الف اعلان عدا الجرائد التي ينشرها بلغات مختلفة ويعلن فيها اعمالهُ

واتفق مع شركات سكك الحديد في انكلترا وفرنسا وسائر اقطار المكونة ومع شركات السفن البخارية ومع اصحاب الفنادق الشهيرة في كل مكان حتى تقبل التذاكر التي يعطيها للسافرين كأنها دراهم ينقدونها اياها اجرة السفر او الاقامة ولكن لم يتم له ذلك الاَّ بعد عناء كثير واسفار شاقة

ومن اعظم اعماله واشهرها وانفعها لهذا القطر اهتمامه بجلب السياح اليه وتسفيرهم فيه. وقد ابتدأ اشتغاله فيه منذ سنة ١٨٧٠ ثم اناطت به الحكومة الانكليزية ارسال حملة السودان سنة ١٨٨٤ و ١٨٨٥ اي نقل احد عشر الفاً من الجنود الانكليزية وسبعة آلاف من الجنود المصرية ومئة وثلاثين الف طن من الميرة وثمانمئة قارب واكثر من ستين الف طن من الفحم الحجري واقتضى ذلك ٢٨ سفينة بخارية تسير بين انكلترا ومصر وستة آلاف عربة تنقل بين الاسكندرية واسيوط و ٢٧ سفينة بخارية تجر النيل نهاراً وليلاً و ٦٥٠ مركباً شراعياً. وهذا اعظم عمل عمله انسان واحد او محل تجاري واحد. وقد استخدم لاتمام هذه الاعمال خمسة آلاف نفس. ثم رأى ان سفن الحكومة المصرية لا تصلح لتسفير السياح في النيل لما اعتورها من الخلل في حملة السودان ولم ترضَ الحكومة ان تبني سفناً جديدة غيرها فاضطرَّ ان يبني السفن البخارية لهذه الغاية. فهو الذي زاد رغبة الاوربيين والاميركيين في المجيء الى هذا القطر والسياحة فيه. وقد رافق كثيرين من العظماء اليه والى بلاد الشام وختم اسفاره معهم بسفرته الاخيرة مع امبراطور الالمان وهاك ما كتبته جريدته الانكليزية في هذا الشان

لما أُعلن رسمياً ان الامبراطور عين الوقت الذي يزور فيه الارض المقدسة واناط تدبير ذلك بجون كوك أخذت الجرائد تذيع ما شاءت من الاخبار والآراء عن هذه الزيارة وطلب كثيرون من اصحاب الجرائد الاوربية ان نخبرهم بما نعلمه عنها فابينا لانه ليس من عادتنا ان نذيع مقاصد الذين يسافرون معنا من غير اذنهم. اما الآن وقد تمَّ امر هذه الزيارة ولم يبقَ لمكاتبي الجرائد حقها من الوصف رأينا من الواجب علينا ان ننشر هنا ما كتبه المستر جون كوك نفسه في وصفها قال

"نزلت في نابلي في اواخر مارس سنة ١٨٩٦ وكنت ذاهباً من مصر الى اثينا فاخبرني وكيلي فيها انه ينتظر وصول امبراطور الالمان الى هناك في اليوم التالي وانه آتٍ لزيارة جبل يزوف فعزمت لساعتي ان اراقب التدابير المعدَّة لزيارته. واستقبلته على جبل يزوف فاخبرني في حديث طويل دار بيننا انه عازم على زيارة الارض المقدسة حينما يتم بناء الكنيسة والمستشفى في القدس الشريف وانه ربما يزور القطر المصري ايضاً وذكر لي تفاصيل هذه الزيارة وختم كلامه بقوله انه عازم ان لا يقبل ضيافة احد بل يكل تدبير السفر كله الينا. فاكتبت بجلالته انه اذا اناط بنا

تدبير هذه الزيارة عدا ذلك منّة منهُ عليَّ واني انا المقضي الى فلسطين واراقب التدابير اللازمة بنفسي ولي رغبة شديدة في مشاهدة افتتاح البناء الحديد على خرائب مضاف مار يوحنا لاني حائز لرتبة الفرسان الخاصة بمار يوحنا الاورشليمي . وفي شهر مايو سنة ١٨٩٨ طُلب منا ان نقابل معتمدي الامبراطور ونتذاكر معهم في تفاصيل هذه الزيارة فبعثت بابني فرنك لانهُ اعرف اخوته باحوال فلسطين لكثرة اسفاره فيها وذهب معهُ مدير اشغالنا في فلسطين وقنصل المانيا في اورشليم فقابلوا معتمدي الامبراطور في المانيا واتفقوا معهم على خطة السفر . وكان قصد الامبراطور ان تكون النفقات كلها منهُ ولكن الحضرة السلطانية ابت ذلك " وبعد تفصيل مسهب في هذا المعنى قال " اقتضى لنا ١٤٣٠ مطيَّة من الخيل والبغال و١١٦ مركبة وثلاثة قطُرات خاصَّة من القدس الى يافا وثلاثة قطرات أُخرى من بيروت الى دمشق ومن دمشق الى بيروت و٨٠٠ مكار وسائق و٢٩٠ خادماً و٣٠٠ خيمة . وأُرسلت الاطعمة من انكلترا والمانيا وانقسا ومصر وبلغ ثمن الفواكه والفراخ والبيض الذي دفع في فلسطين وحدها الفي جنيه . وكانت مائدة الامبراطور توضع يومياً لثلاثين او خمسة وثلاثين نفساً وادواتها كلها من الفضة الخالصة وكان الامبراطور قد اخذ معهُ طبَّاخهُ الخاص وتُدُلَّهُ المختصين به فلما رأى جودة الطعام وحسن الخدمة صرف طباخهُ وتدلهُ بالاجازة . وكان اخرُّ شديداً فرضتْ واشتدَّ عليَّ المرض ولكنني تجلدت وقابلت الامبراطور والامبراطورة حين وصولها الى اورشليم في التاسع والعشرين من اكتوبر فلما رآني الامبراطور اقترب مني وسلم عليَّ مصافحةً واظهر اسفهُ لاني مريض واكد لي ان كل تدابير السفر جارية احسن مجرى كأنها الساعة في انتظامها وقال ان ابنك خير خلف لك ونحن راضون تمام الرضى بكل تدابيره ثم قال " يا مستر كوك وعدتك على جبل يزوف ووعدتني انت هناك وكلٌّ منا قد تمَّ وعدهُ وانا راضٍ تمام الرضى " . وتقدمت الامبراطورة حينئذٍ وهي راكبة على جوادها وسألتني عن صحتي وطلبت مني ان اكون مطمئناً من جهتهم ولا اتعب نفسي لان كل شيء جارٍ على تمام الانتظام . ثم قال الامبراطور " على مَ هذا الاهتمام الشديد ولماذا شوَّهوا اورشليم بتبييض جدرانها وتلوينها فاني كنت احب ان اراها كما هي على حالتها الطبيعية "

وكان تدبير هذا السفر منوطاً بابني فرنك فانهُ قابل الامبراطور حال وصوله الى مرفإ يافا ورافقهُ الى آخر سفره في سورية . ولما لم اكن عازماً ان ارافق الامبراطور الى مدينة بيروت جاء ابني بنفسه قبل سفري من يافا وقال لي " اني اهنئك يا مستر كوك لان انتظام اعمالك اعجب ما رأيتهُ في حياتي ولقد كان الاهتمام بنا من اصعب الامور لان مركبنا اكبر المراكب

التي سارت في هذه البلاد او التي يمكن ان تسير فيها لكن ابنك واعوانهُ قد اتوا كل شيء طبق المرام وانا راضٍ فوق الرضى رضى " وتقدَّمت الامبراطورة اينَّ وكتبتي بما يماثل ذلك واظهرت لي رضاها التام. وقد تكرَّم الامبراطور فاعرب عن مثل ذلك لابي قبلما برح بيروت وانعم عليَّ بشان تاج بروسيا الذهبي وعلى ابني بشان النسر الاحمر اثباتاً لذلك

وهنا ختمتُ الخطة التي سرت فيها خطة تسفير السيَّاح بنفسي التي ابتدأتُ بها سنة ١٨٤٤ وانا ولد صغير اقود نحو خمس مئة ولد للنزهة ومن ذلك الحين الى الآن قد سرتُ مع كثيرين من كل طبقات الناس الى كل مكان مشهور على سطح البسيطة وحسبي ان اختمها بسفر امبراطور الالمان في الارض المقدسة "

وجاء المستر كوك بعد ذلك الى القطر المصري مستشفياً وصعد في النيل وعاد الى البلاد الانكليزية في ١١ ديسمبر ولكن المرض الذي اصابهُ وهو في القدس الشريف اورده حتفهُ في الرابع من هذا الشهر (مارس) وهو في الخامسة والستين من عمره

وكان طويل القامة انيس المحضر طلق المحيَّا على مهابة وكمال ونزاهة لا يشرب الاَّ الماء القراح ولا يثابر في المعيشة مع بذخ رغيد في اعداد كل اساليب الرفاهة للذين يسافرون معهُ . دعانا منذ بضع سنوات للسفر معهُ الى الصعيد الاعلى في سفينة بخارية جديدة من سفنهِ فقضى كاتب هذه السطور في ضيافتهِ وشاهد آثار المصريين الاقدمين وكتب رسائل النيل التي نُشرت في المقتطف في اواخر سنة ١٨٩٠ واوائل سنة ١٨٩١ وفي المجلد الخامس عشر من المقتطف وقال في خاتمتها " وكان الخواجه جون كوك معنا وهو من ذوي الاقدام الذين عركوا الدهر وداروا الاعمال العظيمة الواسعة النطاق بهمة لا تعرف الملل وقد كلَّل الشيب مفرقهُ ولكنهُ لم يمحُ علامات البشر والايناس من وجههِ فكان يعامل جميع ضيوفهِ كانهُ ضيفهم وهم اصحاب السفينة وما فيها وقد اطلعني على كتاب فيهِ رسائل كثيرة أرسلت اليهِ من الملوك والامراء والعظماء الذين سافروا معهُ يشكرون لهُ ما لقوا من همتهِ وانتظام اعمالهِ وفيها رسالة بالقلم المصري القديم فكتبتُ تحتها هذه الابيات

حُييتَ يا كُكُ سيد النيل الذي ... باهت سفائنهُ سفينةَ نوحِ
انَّاتَ للسيَّاح اسلوباً بهِ ... سهَّلتَ ما في النيلِ من تبريحِ
ما قلتُ ذلك مادحاً مَن كان قد ... مدوحَ الملوك فذاك فوق مديحي "

وشاهدناهُ بعد ذلك مرارًا وكان في كل مذاكراتهِ معنا يُعرب عن غرام شديد بهذا القطر ورغبة صادقة في خير اهاليهِ . وطلب الينا غير مرة ان نترجم لهُ الدليل الذي وضعهُ

الدكتور بدج امين الآثار المصرية في دار التحف البريطانية ارشاداً للسياح الى معرفة تاريخ المصريين القدماء وكان مرادهُ ان يطبع منهُ الوفاً من النسخ ويهديها الى الطلبة في مدارس الحكومة لكن اشغالهُ الكثيرة حالت دون اتمام هذا الغرض

وقد توفاهُ الله بعد ان رشّح ابناءهُ الثلاثة لادارة اعمالهِ الواسعة النطاق ورآهم جارين في خطتهِ وخطة ابيهِ من قبلهِ بالهمة والاقدام

الجواهر واقوال العرب فيها

البادزهر Bezoar

البادزهر كلة فارسية معناها ضد السم من باد واق او شاف وزهر سم مادة توجد في معد الايائل ونحوها من انواع الحيوان ظنّ قديماً انها ترياق للسموم. وزعم التيفاشي ان اصل البادزهر في لغة الفرس پاك زهر ومعنى پاك النظافة وزهر السم اي منظف السم . واسهب في وصف هذا الحجر وقال " انهُ صنفان احدهما حيواني والآخر معدني اما المعدني منهُ فاني وقفت عليهِ في معدنهِ بنفسي في الخرم بين جزيرة ابن عمرو الموصل وهو هناك كثير ويوجد منهُ حجارة كبار تتخذ انصباً للسكاكين وغير ذلك وتبلغ القطعة من اوقيتين واكثر من ذلك . وهذا النوع منهُ ابيض وفيهِ نقط من الوان صفر وغير ذلك من الالوان وليس لشيء منهُ نفع من السموم اصلاً " وقال غيرهُ " انهُ حجر معدني على ما ذكرهُ الاوائل ولم يفصلوا صفاتهِ وعلاماتهِ وانهُ يفوق الجواهر لانهُ مخصوص بمنفعة النفس وتنجيها من متالف السموم القاتلة وهو من معدن بخراسان ويوجد بديار مصر في برية عيذاب في اماكن السيول وغيرها كباراً وصغاراً الواناً كثيرة . وفيهِ ما يشفُّ وما لا يشفُّ وما كان منهُ شفافاً فهو افضل اجناسهِ ومنهُ اصفر واخضر وفيهِ املس وما فيهِ شظايا "

ويظهر من هذا الوصف وغيرهِ ان القدماء ارادوا بالبادزهر المعدني الحجارة المستديرة الشكل التي يكون في قلبها حلازين او هنات اخرى او يكون قلبها متبلوراً كما ترى في الاشكال التي على الصفحة التالية وهي المسماة عند علماء الجيولوجيا بالبيزوليت

اما البادزهر الحيواني فاسهب التيفاشي في وصفهِ وذكر خواصهُ في نحو ١٥ صفحة واورد من القصص والنوادر ما هو في حد الغرابة . قال انهُ حجر خفيف مش اصفر واغبر منقط نقطاً خفيفة كالقش يوجد طبقات رقاقاً في اصل تكوّنهِ طبقة فوق طبقة لا يوجد الاّ كذلك ويحلّ